التاريخ والاستحالة في التحوّلات التاريخية وفي الوعي بها (II)

رضوان السيد

I

عاد كريستوفر كولمبس من رحلته التي اكتشف فيها القارَّة الجديدة، في مارس عام 1493. خرج كولمبس لاكتشاف طريقٍ للهند، ورجع بشيءٍ مختلفٍ تماماً؛ كتب عنه تقريراً مفصَّلاً رفعه إلى الملكين اللذين أرسلاه: فرديناند وإيزابيلا. عُرف ذلك التقرير برسالة كولمبس، ونُشِرَ بالأسبانية في برشلونة بعد أسابيع قليلةٍ على كتابته. وفي مايو 1493 نُشر بروما باللاتينية. ثم ظهرت سريعاً ترجماتٌ له إلى الإيطالية والألمانية فسائر اللغات الأوروبية. وفي الذكرى الخمسمائة لذلك الاكتشاف الذي غيّر صورةَ العالم ومصائره؛ بل وقبل ذلك؛ ظهرت مئاتُ الدراسات الناقدة لمختلف جوانب تلك الرحلة وذلك الاستكشاف. لكنْ لم يغب في شيءٍ منها الإحساس بالأهمية الفريدة لذلك الاكتشاف من الناحية التاريخية. وبعد اكتشاف كولمبس الهائل وغير المقصود؛ استطاع البرتغالي فاسكو داغاما ـ قاصداً هذه المرة ـ أن يصل إلى الهند (مايو 1498م) عن طريق الدوران حول القارة الإفريقية.

وبالعودة إلى المصادر التاريخية العربية، لا يبدو أنّ الدولة المملوكية أو مؤرّخيها عرفوا شيئاً عن ذينك الاكتشافين. والمعروف أنّ الدولة المملوكية

سقطت على يد العثمانيين عام 1517. وكان القلق قد ساور السلاطين المماليك من تحركات البرتغاليين في البحر الأحمر وبحر العرب؛ لكنهم ما استطاعوا إدراك المقاصد الأخيرة أو النهائية للبرتغاليين والأسبان وبعض المدن الإيطالية آنذاك: السيطرة على مساحاتٍ بريةٍ عبر العالم الإسلامي وصولاً للهند أو ـ وهو الأسهل ـ اكتشاف طريقٍ بحريٍّ إليها يجنِّبُهم تحكم المسلمين بالتجارة مع الهند. لكن: ماذا عن العثمانيين القوة الإسلامية الجديدة الصاعدة؟ يرى بعض الباحثين أنّ العثمانيين وعوا خطورة التحركات البرتغالية والإيطالية في البحر الأحمر وبحر العرب، وحاولوا مقاومتها. بيد أنَّ اهتمامهم الرئيسي كان موجَّهاً لنواحي أُخرى: البلقان وشرق أوروبا ووسطها وآسيا الوسطى حيث كانوا في كلّ تلك المناطق لا يزالون يكسبون أراضي جديدةً، ويستخدمون تلك السيطرة في اصطناع موارد جديدة للدولة والسلطان، كما يفيدون من الفتوحات في بناء جيشهم (الإنكشارية) من أطفال وفتيان الأقاليم المفتوحة. وفتحت ثورة القزل باش الطويلة عليهم في مطلع القرن السادس عشر بشرق الأناضول، جبهةً جديدةً أدَّت بهم ـ إلى عوامل أخرى استراتيجية واقتصادية ـ إلى مصارعة الصفويين ثم القاجاريين بإيران التي اتهموها بدعم الثوار الشيعة. وربما كان بين أسباب استيلائهم على البلدان العربية تطويق إيران من ناحية الشام. وقد تمكنوا فعلاً فيما بعد من انتزاع العراق منها وإن لم يستطيعوا التأثير كثيراً في تطورات السلطة داخل إيران، ولا الاحتفاظ بالأراضي والأقاليم التي احتلُّوها بعد موقعة جالديران. وإلى اختلاف اهتمامات العثمانيين عن اهتمامات الصفويين والمماليك بسبب اختلاف الموقع الجغرافي للعاصمة؛ نبَّهنا فرنان بروديل في دراسته الشهيرة عن «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني». فالمجال البحري الاستراتيجي بالنسبة للعثمانيين كان البحر المتوسط؛ في حين كان الصفويون مهتمين بالخليج وبحر الهند، وكان المماليك مهتمين بالبحر الأحمر وبحر العرب أو الهند وسواحل إفريقية الشرقية التي كانوا يمضون وتمضي سفنهم وبعثاتهم عَبْرَها إلى المناطق والسواحل الإسلامية بالهند.

ولا يذكر الملاَّح العربي الشهير أحمد بن ماجد شيئاً عن مساعدته لفاسكو

داغاما أو غيره فيما بين ماليندي وكاليكوت. بل إنه يشير بطريقةٍ غير مباشرة إلى أنهم وصلوا للهند مفيدين من العلم الجغرافي، وعلم الخرائط والبحار العربيين، ومن التجربة. لكنّ مؤرّخ الكشوف الجغرافية المعروف J.H. Parry في دراستيه عن «عصر الكشوف» (1963)، و«استكشاف البحار» (1981) يشكّك في إمكان حصول تلك المُساعدة بسبب الطابع الديني القويّ الذي كان يحكم التنافس والصراع بين المسلمين من جهة، والبرتغاليين والأسبان من جهة ثانية. ويستدلّ Parry على الطابع الديني الذي اتخذته المنافسة التجارية والبحرية **بالحوار** الذي دار بين البرتغاليين اللذين أرسلهما داغاما إلى الساحل عند وصوله إلى الشاطىء الهندي للاستخبار ومحاولة إقامة علاقة مع السكان هناك! فعندما حيّا البرتغاليون أولئك الذين أتوا لمقابلتهم فاجأهم هؤلاء بالقول: عليكم اللعنة! من أنتم؟ وماذا تريدون؟ وأجاب البرتغاليون أنهم من رعايا الملك غواو البرتغالي، وأنهم أتوا من بلادهم البعيدة للبحث عن مسيحيين جدد وعن التوابل!. ولا يذهب S.Soucek في مقالةٍ له عن «بيري رئيس» مذهب Parry في شأن العامل الديني. ذلك أنّ الأوروبيين المسيحيين كانوا الطرف الآخر دائماً في التجارة. وما كان التجار يحسبون حساباً كبيراً للتبعية الدينية للمتعاملين معهم؛ وإن كان يهمهم طبعاً أن تبقى التجارة والبحار بأيديهم. وفي هذا المجال كان تذمُّرُهم من سلطاتهم الإسلامية بالهند وإيران ومصر أشدَّ من تذمُّرهم من «شراهة كفار الفرنجة». ويغلب على الظنّ أنَّ كبارهم (وحتّى أمثال أحمد بن ماجد) ما كانوا يعرفون دلالات هذه التحركات البحرية الكثيرة؛ لأنهم ما كانوا يعرفون الكثير عن التقدم الأوروبي الداخلي في سائر المجالات. ذلك أنّ مفاهيم القوة والضعف لدى المسلمين كانت يومها متعلّقةً ـ ولعدة قرونٍ خلت وتلت ـ بمدى قوة أو ضعف السلطة المركزية، أي أنّ قوة السلطان المتمثّلة في سيطرته على الجند، كانت تعني انتظاماً في الأمور الداخلية، وبالتالي قوةً للدولة والرعية. وهكذا فإن قوة البرتغاليين الظاهرة نجمت في نظرهم عن قوة الملك البرتغالي. كيف لا وهم كانوا لا يزالون بمشهدٍ من سقوط الإمارة الإسلامية الأخيرة بالأندلس إمارة غرناطة، عام 1492م؛ بسبب قوة الملكين الأسبانيين فرديناند وإيزابيلا، اللذين توحَّدت على أيديهما بالزواج مملكتا أرغون وقشتالة؟!

II

على أنَّ المشهد الإسلامي آنذاك ما كان واحداً لا فيما يتصل بالدول ومصالحها، ولا فيما يتصل بالوعي بالتحولات التاريخية التي كانت تجري: على مستوى العلاقات بين الشرق والغرب، وعلى مستوى التطورات العلمية (التقنية) والاقتصادية (النمو الرأسمالي). فأحمد بن ماجد الذي ترك تُراثاً ضخماً في علوم البحار وأدبها وقصصها، وصناعة الخرائط، وكتب الإرشاد البحري؛ كان يعرف ـ كما يبدو من كتبه ـ بالتقدم العلمي الغربي في المجال الجغرافي، ومجال علوم البحار على الأقلّ. بل إنه حاول الإفادةَ من ذلك في مجال رسم الخرائط البحرية وإن لم يذكر مصادره لذلك. لكنّ الباحثين الذين اهتموا بنشر تُراث ابن ماجد من عربٍ وغربيين يقولون إنّ الرجل كان رجل تجربةٍ وخبرة، يعتمد على مشاهداته المباشرة وخبرة شيوخه من البحارة؛ أكثر مما يهتم بقراءة بطليموس أو حتى الخرائط الجديدة التي بدأت تصلُ للمسلمين من البرتغال وأسبانيا والمدن الإيطالية. وما كان الأمر على هذا النحو مع بيري رئيس (1480 ـ 1554م) الذي وعى التقدم الأوروبي في الجغرافيا وعلوم البحار تماماً، بل وحاول أن يقدّمه لمعاصريه من المسلمين أخذاً من المصادر الأوروبية مباشرةً. وكما سبق أن ذكرت فيما تقدم من هذه القراءة فإنَّ بيري رئيس كان بحَّاراً مجرَّباً وضابطاً في البحرية العثمانية. وكانت معارفه وتجاربه الرئيسية في البحر المتوسط؛ لكنه جمع معلوماتٍ من المسلمين والأجانب عن البحار الأُخرى. وقد عرض نتائج خبراته ومعلوماته في عملين مهمين: خريطة العالم (1513م)، وكتاب البحرية (1526م). أمّا كتاب البحرية (باستثناء المقدمة) فيشبه كتب الإرشاد البحري التي كتبها سَلَفُهُ أحمد بن ماجد؛ لكنّ بيري رئيس كتب هنا عن البحر المتوسط في حين كانت خبرة أحمد بن ماجد في بحر الهند والبحر الأحمر. الجديد تماماً خريطتُهُ للعالم التي تظهر في الأجزاء الباقية منها أقسام من المحيط الأطلسي، وأوروبا وأفريقيا بالإضافة إلى الأجزاء التي كانت معروفةً من العالم الجديد حتى ذلك الحين (أمريكا الشمالية). وعلى هذا القسم من الخريطة بالذات كتب بيري رئيس شرحاً طويلاً ذكر فيه أنه اعتمد في رسمه لهذا القسم على نسخةٍ من

خريطة كولمبس نفسه كانت البحرية العثمانية قد عثرت عليها في سفينةٍ بلنسية أسرتها. ويذكر S. Soucek الذي نشر دراسةً عام 1992 عن بيري رئيس وخرائطه أنَّ الرجل يبدو صادقاً في دعواه لدقَّة الخريطة، وتوافقها مع الصيغة الأولى لخريطة كولمبس وتصوره للبحر الكاريبي آنذاك. ويدعم بيري رئيس معلومات كولمبس بمعلومات برتغاليين رسموا خرائط بعد الكشوف الأولى. أمّا البارز في مقدمة كتاب البحرية له فهو حديثه عن الكشوف الجغرافية التي حقّقها البرتغاليون والأسبان؛ في العالم الجديد، وفي آسيا وإفريقيا. ولا ينسى أن يشير إلى أنَّ هناك تقدماً تقنياً ملحوظاً مكّن من تلك الكشوفات. وقد أهدى بيري رئيس الخريطة إلى السلطان سليم الأول، أما الكتاب فقد أهداه للسلطان سليمان القانوني. وكان والي مصر العثماني قد عيَّن بيري رئيس قائداً عاماً للأسطول العثماني في البحر الأحمر والمحيط الهندي: فهل كان ذلك مكافأةً له أو إحساساً بأهمية عمله العلمي؟ لا يبدو ذلك! إذ إنّ السلطات العثمانية أَعدمت الرجل عام 1554م لفشله في استرداد ميناء هرمز من البرتغاليين، واتّهامه بمُخامرتهم! والذي يظهر أن عَمَليه لم يُقْرآ! فالرجل ما كان ضابطاً عظيماً أو عسكرياً موهوباً بل كان عالماً كبيراً، وخبيراً بالخرائط والرياضيات. وكان الأجدى عليه وعلى الدولة تكليفه بإنشاء مدرسةٍ لعلوم البحر وهندسة الخرائط والاستكشاف كما كان البرتغاليون والأسبان والهولنديون يفعلون إبَّان ذلك الوقت.

وما كان بيري رئيس الاستثناء الوحيد فيما يتصل بوعي المتغيرات. فقد كان هناك أيضاً تقي الدين المهندس (1526 ـ 1585م)؛ وهو عربيٌّ دمشقيٌّ اشتهر بعلمي الفلك والميكانيكا (التي سمّاها العربُ منذ القِدَم: علم الحيل). عمل تقي الدين في شبابه وكهولته موقِّتاً بدمشق، وقاضياً بالقاهرة. وعندما أنشأ العثمانيون مرصداً بالعاصمة عام 1575م استدعوه للإشراف عليه. في اسطنبول جمع الرجل حوله عدداً كبيراً من الشبّان الموهوبين في الرياضيات والفلك والفيزياء، وتوصّل لصنع ساعةٍ ميكانيكية، كما صنع شكلاً للكرة الأرضية قريباً مما عُرف فيما بعد. وفجأة جرى تعطيل المرصد وطرد علمائه عام 1580م لأنَّ شيخ الإسلام أحمد شمس الدين أفندي أقنع السلطان مراد الثالث بمضارّ المرصد على الدين ومصالح المسلمين

في الدارين!

III

أطلَّ القرن الخامس عشر على العالم المعمور ـ كما كان الجغرافيون المسلمون يُسمُّون الأجزاء المسكونة والمتمدينة من القارات الثلاث ـ وفيه ثلاث حضاراتٍ حيَّة تسيطرُ كُلٌّ منها على مساحاتٍ شاسعة من «العمران»: الحضارة الصينية، والحضارة الإسلامية، والحضارة الأوروبية. وقد كان على الأوروبيين أن يخطوا خطواتٍ واسعة بعد تراجُعات قرونٍ منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية، وانحسار بيزنطية، وهجمات البرابرة. كان عليهم أن يخطوا خطوات واسعة ليمكن وضعهم مع الحضارتين الآسيويتين الكبريين: الصينية والإسلامية على قدم المُساواة في مطالع القرن الخامس عشر. وما توقفت الحضارة الصينية عن النمو والإنتاج (كما أثبت ذلك نيدهام في دراساتٍ مشهورة). لكنّ السلطة المركزية المسيطرة اختارت أن تكتفي، وأن تنكفىء وراء سورها العظيم حتى اخترقتها مدافع الأوروبيين من البحر فالبر. وما كان بوسع العثمانيين الانعزال ولا الاكتفاء. بل إنهم سعوا لعكس ذلك. ظلُّوا يقضمون ممتلكات بيزنطية حتى استولوا على عاصمتها عام 1453م ثم اندفعوا فاحتلّوا البلقان ووصلوا للمجر، وحاصروا فيينا للمرة الأولى عام 1529م. ويذكر المؤرخ لطفي باشا أن السلطان سليم الأول كان يريد الاستيلاء على أوروبا كلّها لولا وفاته المفاجئة. وظلّت هذه الأساليب القروسطية في الغزو والفتح والغنائم والإقطاع ناجحةً ـ رغم هزائم متفرقة ـ حتى منتصف القرن السابع عشر. واحتاج الأمر إلى زُهاء القرن ونصف القرن بعد ذلك حتَّى اقتنع رجالاتُ الدولة، واقتنعت نُخَبُها بأنّ العالم تغيّر، وأنَّ القوة العسكرية ليست ضماناً لبقاء الدولة، وبقاء قوتها. ويبدو أنّ النجاح الهائل في عمليات الغزو والفتح والسيطرة؛ كان وراء الإحساس بالاطمئنان، وعدم الحاجة للتغيير. بل ربما كان ذلك النجاح أيضاً (حتى بالمعنى الاقتصادي) وراء عدم الاهتمام بإنشاء قوة بحريةٍ تجاريةٍ معتبرة. فالأسطول المملوكي، والأُسطول العثماني بعده؛ كانا أسطولين حربيين لمواجهة أساطيل الدول الأخرى أو القيام

باعتراض السفن التجارية للدول الأخرى من أجل الاغتنام. وما فكر المماليك، ولا فكَّر العثمانيون بأساطيل تجارية؛ بل ظلَّ الأمر قاصراً على التجّار أنفسهم الذين لم يقلّدوا الأوروبيين أيضاً في إنشاء أو محاولة إنشاء وكالات وجاليات لهم في بلاد «الكفّار» لمتابعة أعمالهم، وتطوير تجارتهم. وإذا كانت الشركات الفرديةُ أو الخاصّة عاجزةً عن إقامة الأساطيل والوكالات، فلماذا لم تفعل ذلك السلطات الإسلامية؟ لماذا ما فكَّر سلاطينُ آل عثمان الأقوياء بطلب امتيازات ووكالات تجارية في المدن الأوروبية في مقابل الامتيازات والوكالات والجاليات التي كان الأوروبيون يقيمونها في «مدن دار الإسلام الساحلية»؟! الذي يبدو أنَّ المسلمين ما كانوا يشعرون بالحاجة لتعلُّم شيءٍ أو لمزيدٍ من المكسب من الواردين إليهم بعد انتهاء الحروب الصليبية! كانوا يكسبون الكثير من الضرائب والمكوس على السلع التي تستوردها أوروبا منهم. وكانوا يكسبون كسباً هائلاً من الغزوات المضمَّخة بعبق الفتح، والكسب الجديد للإسلام وداره في البلقان وشرق أوروبا ووسطها! ثم ماذا هناك عند الأوروبيين مما يمكن تعلُّمُه وقد انتزع منهم السلطان محمد الفاتح «دُرَّة الدُرَر في البلاد النصرانية»: القسطنطينية، وما استطاعوا استرجاعها بل إنهم لم يحاولوا ذلك! هذا الاقتناع بالتفوق، والتفوق بالأساليب المعتادة منذ قرونٍ حال دون الالتفات لمتغيرات القرن الخامس عشر الأوروبية، كما حال دون الاهتمام بقلق قلةٍ من النخبة أدركت أنّ هناك متغيرات نوعية غير ما عهده المسلمون في غابر القرون من أخطارٍ صليبيةٍ أو مغولية. صحيحٌ أنَّ الأوروبيين ما كانوا أقلّ تمسكاً بالمسيحية من المسلمين بدينهم؛ لكنّ المكاسب والاعتبارات الاقتصادية كانت هي الغالبة سواءٌ في صراعاتهم على البحار مع العثمانيين أو في صراعاتهم فيما بينهم على اكتشاف واكتساح العالم الجديد. أما المسلمون فما فهموا من استيلاء البرتغاليين على السواحل في الخليج وبحر العرب، والأسبان على سواحل الشمال الإفريقي إلاَّ أنها غزواتٌ لنشر الدين المسيحي أو السيطرة السياسية المسيحية. كان كلُّ احتكاكٍ عسكريٍّ مع الأوروبيين الهاجمين من ناحية البحر، وفيما بعد من ناحية البر يعني بالنسبة للمسلمين حرباً صليبيةً جديدةً لا أكثر ولا أقلّ!

وساور القلق الرحّالة الطُلَعَة أوليا جلبي عندما زار فيينا ضمن بعثةٍ رسميةٍ عثمانية عام 1665م. رأى الرجل نظافةً ونظاماً ورفاهيةً ومنجزات تقنية وَصَفَها بدهشة تشبه دهشة الجبرتي آخر القرن الثامن عشر أمام مظاهر تقدم الغُزاة الفرنسيين! وطمأنه المستمعون إليه من رجال السلطنة إلى أنها «دنيا الكفّار» التي ستدمّرها أيدي المجاهدين! لكنّ الوزير قرا مصطفى هُزم هزيمةً صاعقةً أمام فيينا عام 1683م فتحقق ما خافه أوليا جلبي.

وهناك دلائل كثيرةٌ على أنّ «قلق» تقي الدين وأوليا جلبي وبيري رئيس كان مشتركاً ومنتشراً ضمن فئةٍ معتبرةٍ من النخبة، من المؤرخين، والكُتاب، ورجال الإدارة. لكنّ «نموذجهم» المفضّل لتجاوز تأخر الدولة وتحلُّلها وفوضاها نادراً ما كان هو نموذج بيري رئيس أو تقي الدين المهندس أو أوليا جلبي. أهمُّ أولئك الذين يمكن ذكرهم في هذا الصدد المؤرخان لطفي باشا (ـ 1564م)، ونعيمة (ـ 1716م). فقد أظهر الرجلان قلقاً عميقاً من تردّي أحوال الدولة المالية والإدارية رغم أن النجاحات العسكرية (وبخاصة أيام لطفي باشا) كانت لا تزال مستمرة. وقد انزعجا (كما انزعج إبراهيم متفرقه بعد ذلك) من تردّي أحوال الفلاّحين، وانتشار الفساد في الإدارة والجيش وحتى القضاء لكنّ مقترحاتهما ما كانت بالدعوة لتفكيرٍ جديدٍ في صيغة السلطة، والإدارة، ونظام المدارس، ونظام الجيش؛ بل بالعودة إلى عهود الإسلام الأُولى تارةً أو إلى العهد العثماني الأول تارةً أخرى (عهد محمد الفاتح وحتى سليم الأول!). وحجتهما لذلك أنّ الأمور وقتها كانت منتظمة، وأنّ المسلمين كانوا ظاهرين على أعدائهم! بل إنّ لطفي باشا حزينٌ لأنَّ هناك بعض المسيحيين في الإدارة وبين مستشاري السلطان! أما إبراهيم متفرقة فقد اضطر لاقتراح إصلاحات في إدارة الجيش، ورأى ضرورة إدخال الطباعة؛ لكنّ ذلك كلّه عنده كان من أجل العودة إلى أمجاد السلف الصالح إذ لا يصلُحُ آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها.

كانت هناك تصوراتٌ وأفكارٌ سائدةٌ في عالم الإسلام الكلاسيكي عن الانتظام السياسي، وعن العلم ومفهومه ووظائفه. أما الصيغة التي سادت في الحكم فكانت منذ القرن الحادي عشر الميلادي صيغة السلطنة، التي استعانت في

البداية بالعصبية المقاتلة للسلطان ثم بالمرتزقة المشترين والمدرَّبين. وأما في العلم فكانت الصيغة التي سادت منذ القرن الحادي عشر أيضاً هي صيغة المدرسة ببرنامجها الكلاسيكي المعروف الذي عمادُهُ الفقه الإسلامي، ثم ما اعتُبر علوماً مساعدةً له. وكان عالم المسلم الذي قام على هاتين الدعامتين قد بقي لقرونٍ متطاولة استطاع خلالها أن يصمد أمام هجمات الصليبيين والمغول والتتار. ثم أن يحقّق على يد العثمانيين آخر اندفاعاته في البلقان وأوروبا الوسطى وآسيا الوسطى. وما استطاع عالم الإسلام هذا أن يدرك المتغيرات الأوروبية في القرن الخامس عشر إلاّ من ضمن التصورات السائدة. وهي تصورات قاومت السقوط والفناء، وصمَّت الآذان، وأَعمت الأبصار، حتى سيطر الجديدُ الجديدُ على العالم المعمور وغير المعمور.